الفن والادب

في حضارة مصر اليوم [1]

لمرقس « سمعان »

توطئة

ختم المرحوم الاستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي ، كتابه في تاريخ «الادب العربي» (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التي صدرت خلال القرن التاسع عشر — وتقول عرضاً ان تلك القائمة لا تخلو من الخطأ في نسبة بعض الصحف الى غير اصحابها وفي التاريخ الذي عينته لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة مجملة نقد فيها الأدب العربي كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار الى بعض ما ينتظر منهُ في المستقبل . فقال فيما قال :

«عرضنا في الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها وانضجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى إلى يومنا هذا . ثم أنسنا في الجذع القديم تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ؛ ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهاراً — فضلاً عن ذلك الغصن العارض الذي تطعم به ، أعني الصحافة الدورية . فأي مستقبل يتهيأ لهذه الثقافة المتجددة ؟ أتجيء محض تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك) ؟ أم اللغة ، وقد أرغمت على التحوّل والتطوّر لترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من فنيّ التعبيرات ما يحرّك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟

« يخيل لأول وهلة ان أوساطاً للنشاط الأدبي كالقاهرة وبيروت ، لهي جديرة باخراج أدباء يتابعون الحركة التي بدأت على يد أسلافهم في القرن التاسع عشر . . . وبأي الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحوّل وتنمو فتصبح اوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أصناف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلاّ نفياً ، لأننا لا نسمح في قطر من الاقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فجردتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها الاّ لاهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة

---

(١) كتاب « حضارة مصر اليوم » عني بنشره قسم الخدمة العامة بجامعة القاهرة الاميركية والتزمت طبعه المطبعة العصرية بمصر

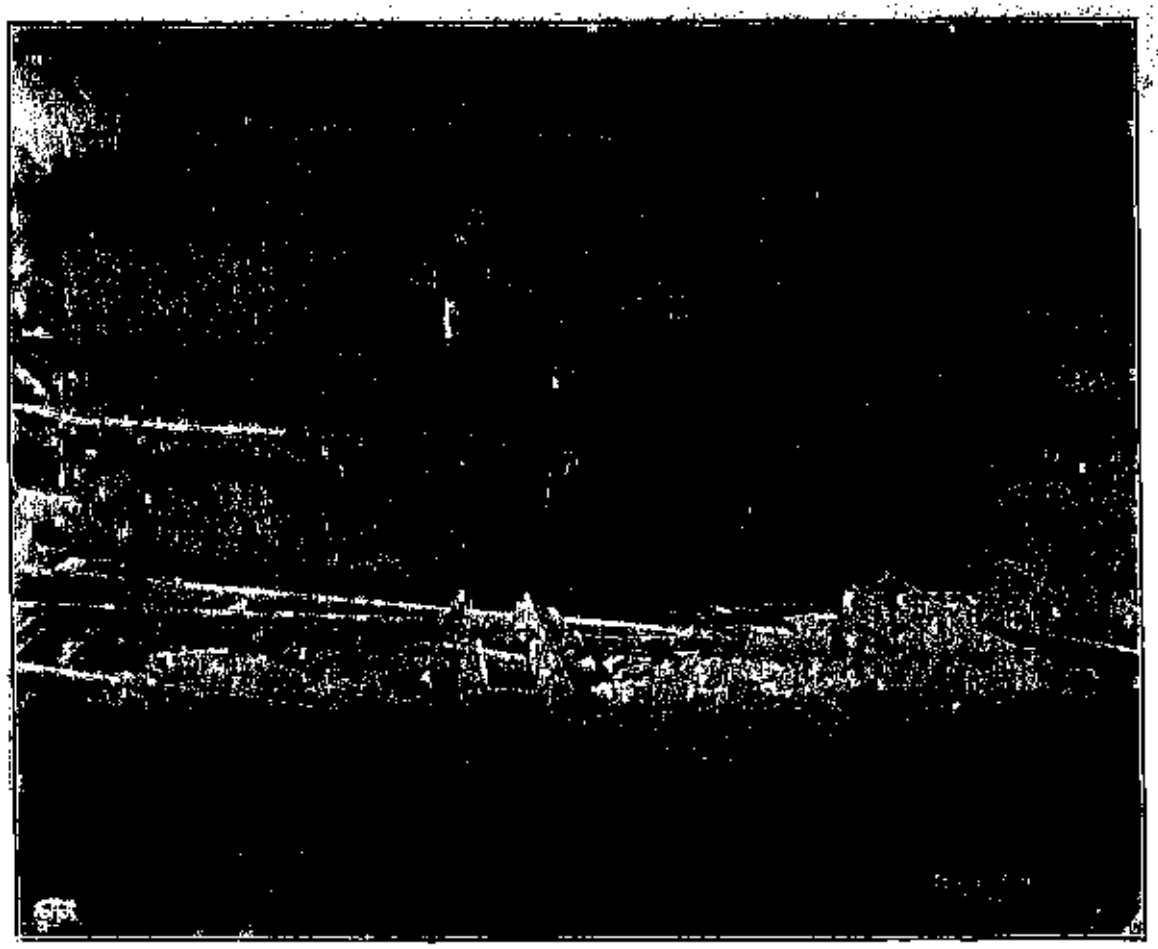

(شكل ٣) كوبري الخديوي اسماعيل

مقتطف يونيو ١٩٣٣

لتحدثها في ما يهمها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية الى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقارىء المثقف أفكوهة ليس إلا ...

« أما ما نود أن تأخذ به اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فاذا جاء يوم يحقق هذه الامنية استطعنا التنبؤ بعهد زاهر للآداب العربية . اهـ »

(١) اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لانها تقرر لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم ينفرد كاتبها بالنقد بل ساهمه فيه المستعربون من زملائه الاجانب وكان الالباء من أدبائنا انفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تصدت نقلها لانها تعيّن حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففي ما يوازي الوقت الذي شهد فيه الاستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أي في ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلمظ والغلو البديعي والابهام الذي كان يشينها في دور الجمود . وهذا تقدم يذكر في نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثة اللغوية الباهظة التي ترهق أدباء هذه اللغة . في ثلاثين عاماً تطورت عندنا اقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكان همها جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفي بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتزام اول مراتب النجاح . بيد ان النجاح في نواح هامة من البيان جاز مرتبة الاعتزام الى دور الانتاج والتحقيق

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنشر الاخرى في هذه الايام — تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعي الانتباه في النشاط الفكري الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تحررت اللغة في كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تحفى به افتقارها الى الفكر الحي والعاطفة الحية . والسجع الذي كان أفكوهة للقارىء المثقف ، بات كبواقي الأطلال المغروية التي يجب أن نجد في البحث عنها لنهتدي اليها . . .

اول بواعث التطوّر

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطوّر . فهي التي نبهت الأدباء الى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المنوّع العظمة ولمحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهي التي لفتتهم الى امكناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لاستقلال تلك للمكنات بغير النشاط والعمل . وهي التي قالت لهم ان الذي يكتفي بما هو فيه قد يكون موميناء نفيسة توحي الى العلماء الرغبة في البحث والاستقصاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم انه العقل المولد والكائن الحي . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب اول أدوات التعديل والاصلاح في يد المستيقظين . واذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر في صوته وفي تعبيره ما ينمّ على يقظته من

الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض إلا قمين بالذين يتكلمون في نومهم . . . ان كلة الحياة تختلف عن كلة الموت

اللغة والصحافة

تجرد واقتدار من الناحية الواحدة ، في حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه اليها من الكلمات والاسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجاتها . والصحافة التي كان الاستاذ هيار يتوسم فيها خيراً — قامت بنصيب وافر في إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكه معاً . فاضطرت الى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها في كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تبتكر وتعرب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ أن المستحدث من الالفاظ والتعبيرات صار في متناول القارىء كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو اسبوعاً أو عاماً تغلب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانه من تفكير القارىء ومن تعبيره . وتيسر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الألفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها في معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية . إلا أن القارىء هنا شأنه في سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلا إذا كان من الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الاسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية

والى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البيان يرضي الخاصة — الخاصة غير المتحذلقة — ورفع إدراك العامة إلى افق أوسع وأرقى . حتى ألف أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب ، بل ألفها حتى الجمهور الذي «يفك الحرف» فيفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء . ويذهب طبعاً في اللحن والتكسير على هواه ، إلا أنه على كل حال يحذق أهم ما تبغي الصحيفة إيصاله اليه من الأنباء والموحيات

أثر الحركة القومية في اللغة

وليس لمؤرخ منصف أن يغفي عن أثر الحركة القومية في تقريب اللغة إلى افهام العامة وفي اثالة الاسلوب الجديد بساطة وحياة . فالحركة القومية التي تلت الحرب الكبرى هزت في

مصر جميع النفوس، وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأمي كالمتعلم يتطلع الى تماشاة الحوادث في سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بني وطنه في إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتّاب كانوا عماد الراغبين في جمع القلوب حولهم، كانوا يشعرون بوجوب التمشي على منهج لا يستعصي على أحد فيكون أقل ما يمكن من الافكار الجوهرية في أقل ما يمكن من الألفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر في الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص . ومن ثمّ ، أي منذ الحركة القومية ، نشأت تلك العادة التي ما زالت شائعة في هذه الأيام ، وهي اجتماع نويّو الدار الواحدة في حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين اليه ، فيتولى احدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفضّ جمعهم الا بعد تبادل الآراء فيما يسمعون ويقرؤون

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطوّر اللغة . لان الادباء والكتّاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف احزابهم منبراً لدعايتهم، وكل يبغي التفوق على مناهضيه في المناظرة اليومية التي لا تهادن ولا ترحم . ومضوا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتهبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لاصابة المرمى . فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال، بل هو وليد يومه ومستوحى ساعته . وتلك المشاحنات الالمية — على عديد مساوئها — كانت دائمة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستقاء من الينابيع الحية . وفي ذلك دليل آخر على أنهُ في الامكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه

من الجدل السياسي الى البحث الادبي

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمتُّ الى الادب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهلهلات القديمة كانت في حاجة الى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت عجاجتها في اعوام قلائل ما قد كان يقتضي لجرفه جيل او جيلين

وبعد ، فمن ذا الذي ينكر أن النفس الفردية أو النفس القومية اذا هي استفزّت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسي في بادىء الامر، انتبهوا فوراً الى ان موضوعهم الرئيسي يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السنية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبنفس الروح الحية التي كانت تملي مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الادبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يملي المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويسمّل الفكر ويثقف الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدّى لهم وللجمهور الذكي أن الكتابات التي كانت

تعد بالامس « خيالية » و« شعرية » انما هي في الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لابدّ من الوصول اليها . في حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و« فصاحة » صار لا يحسن إلا للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر الى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عند ما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب — هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنويع موضوعات الصحافة ، لان الأديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لاذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فان وجهاً من أهم وجوه تطوُّر اللغة وتطور الافكار بمصر تجده مدوّناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الأعوام الاخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة — وان كان لهذه شأنها الخطير وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف

صحيح ، ولكن . . .

تقرير تطوُّر اللغة هو تقرير الواقع ، ولكنه لا يعني ان كل من حمل قلماً يكتب بالاسلوب الذي وصفت . بل يعني ان خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وان الوقت ضمين باصلاح العيوب الباقية . ان أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسيرون في حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكانوا يندبون حظ اللغة العربية ويصفون لها المراثي شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللهيب الذهبي منكرين كل وفود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا ينوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وان ابتكر هو استعارته فهي رجع لاصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون بالسرعة والرشاقة والحماسة والتفكر الملىء وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومتانته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأغراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك الفعلية التي تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء واولئك تأتي بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزعم أن الاسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو انه خلص من شوائب الجدة نفسها — ولكن نزعة الكتّاب حرية بالاعجاب

وعلام لا نقول ان كلاً من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأنصار القديم — كأشباههم في كل أمة وكل زمن — يحفرون تراث الماضي واثقين من ان

الادب المستحدث لن يأتي بخير منهُ ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لانهُ يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها ايضاً . وبخاصة لانهُ لا يندر أن يستوحي المحافظون الافكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون الى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة اطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر بهِ من ثقافة وتتصل بهِ من حضارة . أترى أدب الاندلسيين هو هو أدب الامويين بعينهِ ؟ أوَ لم يختلف أدب هؤلاء نفسهم حتبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

والى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتّاب والصحافيين والادباء جمعت بين محاسن العهدين وهي في الغالب تفوز بتحبيذ هؤلاء واولئك — الاّ عند ما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر...

(٢) الادب الحديث

ليست هي الالفاظ ولا هو الاسلوب ما يؤبه لهُ في مسألة اللغة الادبية . للاسلوب قيمة في نفسهِ من حيث هو صيغة فنية ، وما الالفاظ الاّ تفاصيل في تلك الصيغة . ولكن الشأن الاعظم في العقلية والنفسية التي تترجم عنها الالفاظ ويصورها الاسلوب . والعقلية والنفسية في مصر الحديثة آخذتان في التغير ، وما الادب الجديد الاّ اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذّ عن تعريف ابن خلدون القائل ان « المقصود منهُ (الادب) عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . . . » . الاجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الادب الحديث لان مثل هذه الاجادة تخلق الاديب الراوي والاديب المقلد ، لا الاديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعني الطعن في اساليب العرب ومناحيهم . بل بالعكس ترى ان ادباء اليوم يضنون كل العناية بدراسة تاريخ الادب وبتحليل شخصيات قدماء الادباء والشعراء وبحث التأثيرات التي احاطت بهم في بيئتهم فأوحت اليهم . وقد صدرت كتب عدة في هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج في المحاضرات العامة وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية ، بدراية وحذق لم نعهدهما من قبل

ولكن الادباء ينهجون تلك الآثار على حقيقتها . بروحها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيهِ ، لتصويرها العصر الذي اوحاها ، لكونها قطعة حية من التفكير الذي املاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . اما اذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف في استعداده للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقي التأثيرات

الخاصة المحيطة به لتكوين شخصيته وفقاً لعصره

وقيمة هؤلاء الادباء الجدد في كونهم حقاً ابناء العصر الذي ولدوا فيه . وأي عصر مدهش هو ، يصطدم فيه حولهم الماضي الذي ما زال حياً في بيئتهم بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلمية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الاقوام تكييفاً لا يعلم احد مداهُ ، مع ان تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . اما في مصر فقد بلغ الاجفال اشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاخرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يخسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنهُ لا يستطيع بالسرعة التي يبتغيها لانهُ من الناحية الواحدة عليه ان يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الاخرى لا يريد ان يفقد شخصيتهُ في اتحال الحضارة الغربية بمذاهيرها . بل يريد أن يقتبس منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ، ويريد ان «يتمصر» ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق المسؤولية اكبر . يشعر بالاجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الادراكات والاحساسات تتكوّن شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة واقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتاجها الأدبي تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات

وقد أقلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدها مشيراً الى وسائل التجديد والاصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحيهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً النبض والخصب ويعدهم في كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيبهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه ومجموعة مطالعاته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق متحمس حار غير . وعندي ان بيننا هذا المجهود يكون شخصية الاديب ويمكنه من استغلال قدرته وانمائها فهو كذلك يقود القارىء إلى استكشاف نفسه ويبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة . وهكذا يفضل الأدب الجديد تنوع الشخصيات في المجموع ، بدلاً من ان تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة . ويخيل اليَّ أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم به الأدب الحديث

(يتلى) «مي»

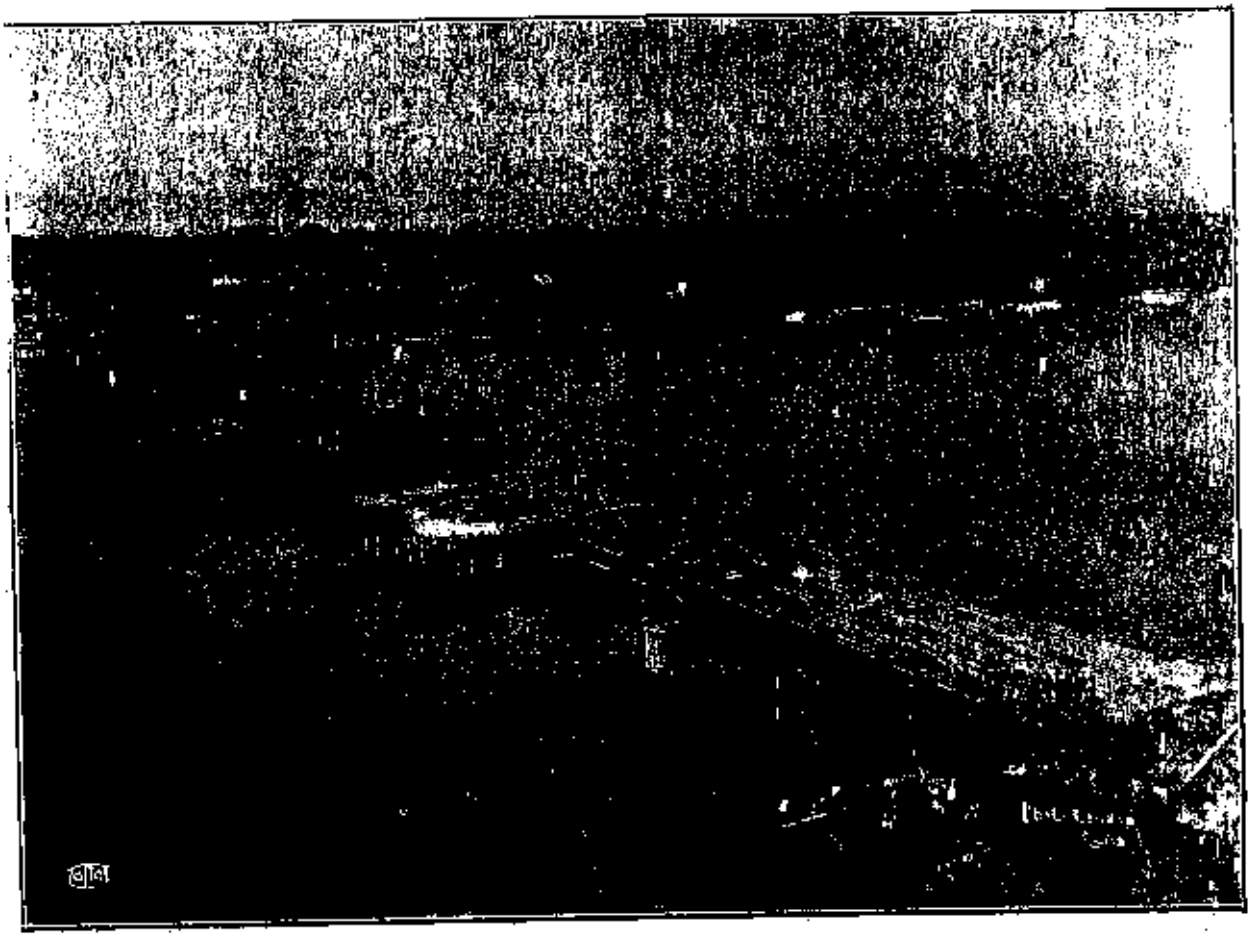

(شكل ٧)
مقتطف يونيو ١٩٣٣

كوبري الخديوي اسماعيل

(شکل ۱) مقتطف یونیو ۱۹۳۲